حجة الله البالغة
الإمام الدهلوي
تحقيق : السيد سابق
دار الجيل
الإمام
الدهلوي
حجة الله البالغة
دار الجيل

حجة الله البالغة
للإمام الكبير الشيخ أحمد
المعروف بشاه ولي الله ابن عبد الرحيم الدّهلوي
حقّقه وراجعه
السيّد سابق
الجزء الأوّل
دار الجيل

باب حقيقة النبوّة وخواصها

اعلم أن أعلى طبقات الناس المُفَهَّمون، وهم ناس أهل اصطلاح، ملكيتهم في غاية العلو، يمكن لهم أن ينبعثوا إلى إقامة نظام مطلوب بداعية حقَّانية، ويترشح عليهم من الملإ الأعلى علوم وأحوال إلَهية[1].

ومن سيرة المُفَهَّم أن يكون معتدل المزاج، سويَّ الخَلْقِ والخُلُقِ، ليس فيه خبابة[2] مفرطة بحسب الآراء الجزئية، ولا ذكاء مفرط لا يجذبه من الكلي إلى الجزئي ومن الروح إلى الشبح سبيلاً، ولا غباوة مفرطة لا يتخلص بها إلى الكلي، ومن الشبح إلى الروح، ويكون ألزم الناس بالسُّنة الراشدة ذا سمت حسن في عباداته، ذا عدالة في معاملته مع الناس، محبًّا للتدبير الكلي، راغباً في النفع العام، لا يؤذي أحداً إلا بالعرض، بأن يتوقف النفع العام عليه أو يلازمه، لا يزال مائلاً إلى عالم الغيب، يُحَسُّ أثرُ ميله في كلامه ووجهه وشأنه كله، يُرَى أنه مؤيَّد من الغيب، ينفتح له بأدنى رياضة ما لا ينفتح لغيره من القرب والسكينة.

والمُفَهَّمون على أصناف كثيرة واستعدادات مختلفة:

فمن كان أكثر حاله أن يتلقى من الحق علوم تهذيب النفس بالعبادات فهو **الكامل**.

ومن كان أكثر حاله تلقي الأخلاق الفاضلة وعلوم تدبير المنزل ونحو ذلك فهو الحكيم.

ومن كان أكثر حاله تلقي السياسات الكلية، ثم وُفِّقَ لإقامة العدل في الناس وذب الجور عنهم يسمى **خليفه**.

ومن ألمَّت به الملأ الأعلى، فعلَّمته وخاطبته وتراءت له وظهرت أنواع من كراماته، يسمى **بالمؤيد بروح القدس**.

ومن جُعل منهم في لسانه وقلبه نور، فنفع الناس بصحبته وموعظته، وانتقل منه إلى حواريين من أصحابه سكينةٌ ونور، فبلَغوا بواسطته مبالغ الكمال، وكان حثيثاً[3] على هدايتهم يُسمى **هادياً مُزَكِّياً**.

ومن كان أكثر علمه معرفة قواعد المِلَّة ومصالحها، وكان حثيثاً على إقامة المُنْدَرِسِ منها يُسمى **إماماً**.

---

(1) كالشوق والتجريد أو غيرهما.

(2) أي: اضطراب وعدم استقلال.

(3) صفة من الحث أي: حريصاً مسرعاً.

ومن نُفث في قلبه أن يخبرهم بالداهية المقدرة عليهم في الدنيا، أو تفطّن بلعن الحق قوماً فأخبرهم بذلك، أو جرِّد من نفسه في بعض أوقاته فعرف ما سيكون في القبر والحشر فأخبرهم بتلك الأخبار يُسمى منذِراً.

وإذا اقتضت الحكمة الإلٓهية أن يبعث إلى الخلق واحداً من المفهمين فيجعله سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النار، وفرض الله على عباده أن يُسْلِموا وجوههم وقلوبهم له، وتأكد في الملإ الأعلى الرضا عمن انقاد له وانضم إليه، واللعنُ على من خالفه وناوأه[1]، فأخبر الناس بذلك وألزمهم طاعته، **فهو النبي**.

وأعظم الأنبياء شأناً من له نوع آخر من البعثة أيضاً، وذلك أن يكون مراد الله تعالى فيه أن يكون سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النور، وأن يكون قومه خير أمة أخرجت للناس، فيكون بعثه يتناول بعثاً آخر.

وإلى الأول وقعت الإشارة في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجُمُعَة: الآية 2]الآية.

وإلى الثاني في قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 110]، وقوله ﷺ **«فإنما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبعثوا معسرين»**.

ونبيُّنا ﷺ استوعب جميع فنون المفهَّمين، واستوجب أتمَّ البعثين، وكان من الأنبياء قبله من يدرك فنًّا أو فنين ونحو ذلك.

واعلم أن اقتضاء الحكمة الإلٓهية لبعث الرسل لا يكون إلا لانحصار الخير النسبي المعتبر في التدبير في البعث، ولا يَعلم حقيقة ذلك إلا علاَّم الغيوب، إلا أنَّا نعلم قطعاً أن هنالك أسباباً لا يتخلف عنها البعث ألبتة، وافتراض الطاعة إنما يكون بأن يعلم الله تعالى صلاح أمة من الأمم أن يطيعوا الله ويعبدوه ويكونوا بحيث لا تستوجب نفوسهم التلقِّي من الله، ويكون صلاح أمرهم محصوراً يومئذ في اتباع النبي، فيقضي الله في حظيرة القدس بوجوب اتباعه، ويتقرر هنالك الأمر، وذلك إما بأن يكون الوقت وقت ابتداء ظهور دولة وكبت الدول بها، فيبعث الله تعالى من يقيم دين أصحاب تلك الدولة، كبعث سيِّدنا محمد ﷺ، أو يقدِّر الله تعالى بقاء قوم واصطفاءهم على البشر، فيبعث من يقوِّم عوجهم ويعلِّمهم الكتاب، كبعث سيدنا موسى عليه السلام، أو يكون نظم ما قضى لقوم من استمرار دولة أو دين يقتضي بعثَ مجددٍ، كداود وسليمان وجمع من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وهؤلاء الأنبياء قد قضى الله بنصرتهم على أعدائهم، كما قال:

---

(1) عاداه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات 171 ـ 173].

ووراء هؤلاء قوم يُبعثون لإتمام الحجَّة، والله أعلم.

وإذا بُعث النبي وجب على المبعوث إليهم أن يتبعوه وإن كانوا على سنَّة راشدة، لأن مناوأة هذا المُنَوَّهِ شأنُه يُورِثُ لعناً من الملإ الأعلى وإجماعاً على خذلانه، فينسدُّ سبيل تقرُّبهم من الله، ولا يفيد كدُّهم شيئاً، وإذا ماتوا أحاطت اللعنة بنفوسهم. على أن هذه صورة مفروضة غير واقعة، ولك عبرة باليهود: كانوا أحوج خلق الله إلى بعث الرسول لغلوِّهم في دينهم وتحريفاتهم في كتابهم.

وثبوت حجَّة الله على عباده ببعثه الرسل إنما هو بأن أكثر الناس خُلقوا بحيث لا يمكن لهم تلقِّي ما لهم وما عليهم بلا واسطة، بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى بإخبار الرسل، أو هنالك مفاسد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفهم، وكانوا بحيث يؤاخذون في الدنيا والآخرة، فأوجب لطف الله عند اجتماع بعض الأسباب العلوية والسفلية أن يوحي إلى أزكى القوم أن يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، فمثله في ذلك كمثل سيد مرض عبيده فأمر بعض خواصه أن يكلفهم شرب دواء أشاؤوا أم أبوا، فلو أنه أكرههم على ذلك كان حقًّا، ولكن تمام اللطف يقتضي أن يُعْلِمَهم أولاً أنهم مرضى، وأن الدواء نافع، وأن يعمل أموراً خارقة تطمئن نفوسهم بها على أنه صادق فيما قال، وأن يشوب الدواء بحلو، فحينئذ يفعلون ما يؤمرون به على بصيرة منه وبرغبة فيه، فليست المعجزات ولا استجابة الدعوات ونحو ذلك إلا أموراً خارجة عن أصل النبوة لازمة لها في الأكثر، وظهور معظم المعجزات يكون من أسباب ثلاثة:

أحدها: كونه من المُفَهَّمين، فإن ذلك يوجب انكشاف بعض الحوادث عليه، ويكون سبباً لاستجابة الدعوات وظهور البركات فيما يبرك[1] عليه.

والبركة إما زيادة نفع الشيء، بأن يخيل إليهم مثلاً أن الجيش كثير فيفشلوا، أو بصرف الطبيعة الغذاء إلى خلط صالح فيكون كمن تناول أضعاف ذلك الغذاء، أو زيادة عين الشيء بأن تتقلب المادة الهوائية بتلك الصورة لحلول قوة مثالية، ونحو ذلك من الأسباب التي يعسر إحصاؤها.

والثاني: أن تكون الملإ الأعلى مُجْمِعَةً إلى تمشية أمره، فيوجب ذلك إلهامات وإحالات وتقريبات لم تكن تُعهد من قبل، فينصر الأحباء ويخذل الأعداء ويظهر أمر الله ولو كره الكافرون.

---

(1) من التبريك وهو: الدعاء بالبركة.